طول الإنسان

السؤال : من الدراسات الجيولوجية و كذلك من دراسات علم أصول الأنسان ما يلى:
ألأنسان الأول كان قصير القامة كذلك كان به وحشية و بدائيه لم يكن على علم بأى شىء الا من خلال التجربه بدايات الأنسان العاقل منذ فترة قصيرة من الزمان مع ظهور بدايات المجتمعات الأنسانية كل هذا يخالف القران والسنه كما يلي : الأحاديث الأنسان خلق طويل القامة و فى تقاصر خلق ادم و تعلم المعارف من الله عز و جل نزل ادم الى الأرض و أنشأ أول مجتمع أنسانى من أبنائه له نظام و قوانين لم يكن هذا المجتمع بدائى أو متوحش ولكن كان به موده و تراحم ويعبد لله عز و جل
-5كان أدم و أبنائه يعملون فى حرفة الرعى و كذلك الزراعة و الصيد السؤال :كل ما سبق عن القران و السنه يتعارض مع الدرسات و الحفريات فما هو ردكم على ذلك لمن ليس مسلم لتأكيد الرساله المحمدية لهم؟

د. محمد دودح
باحث علمي في هيئة الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة

الجواب :
بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد؛ مستعينا بالعلي القدير ﷻ أجيب سائله تعالى العون والتوفيق والسداد:

(١) المعجزة الخالدة

يتفرد القرآن الكريم عن كل ما ينسب سواه للوحي بميزة مطابقة الواقع خاصة مع كشف أستار المجهول في ميادين علمية متنوعة بما يقطع له بالوحي وعالمية رسالته، فهو قطعي الثبوت أجمعه ومحفوظ من التحريف ويخلو من التناقض والاختلاف وهو المتحدى بلفظه ومعناه، قال تعالى: "أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ" العنكبوت 51، وقد نزل على قوم ذوي ملكة في تذوق بليغ الكلام فتحداهم وقهرهم قبل أن تتجلى أدلة مطابقة تشريعاته مع الفطرة وأخباره مع حقائق العلم، قال تعالى: "فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ" الطور 34، فلك إذن أن تجزم بفشل كل محاولات الطاعنين بحثا عن ثغرة في القرآن الكريم، ولم يعط علم تاريخ الإنسان Anthropology كلمته الأخيرة بعد ومازال البحث جاريا حتى الآن، ولو افترضنا جدلا عدم وجود عمالقة فالقرآن يخلو من أية تصريح أو إشارة ضمنية إلى طول الإنسان الأول وهيئته وتناقص أطوال ذريته مخزيا الطاعنين.

(٢) المتشابهات مطمع الطاعنين

أما ما ورد مرفوعًا عن أبي هريرة (رضي الله عنه): "خلق الله عز وجل آدم على صورته طوله ستون ذراعا.. فكل من يدخل الجنة على صورة آدم وطوله ستون ذراعا فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن"[١]؛ فالتذرع به يكشف غرض اتهام السنة النبوية والتشكيك فيها طعنا في الدين لأنه من المتشابه بل اعتبره العلماء من أحاديث الصفات التي آثروا فيها التفويض تورعًا، قال أبو حاتم: "هذا الخبر تعلق به من لم يحكم صناعة العلم وأخذ يشنع على أهل الحديث.. بأن قال: ليست تخلو هذه الهاء (في: صورته) من أن تنسب إلى الله أو إلى آدم، فإن نسبت إلى الله كان ذلك كفرا إذ: (ليس كمثله شيء) وإن نسبت إلى آدم تعرى الخبر عن الفائدة لأنه لا شك أن كل شيء خلق على صورته لا على صورة غيره..، ونحن نقول:.. معنى الخبر عندنا.. إبانة فضل آدم على سائر الخلق والهاء راجعة إلى آدم.. أبان الله بهذا.. بأنه لم يكن نطفة فعلقة ولا علقة فمضغة ولا مضغة فرضيعا.. ولا فطيما فشابا.. (وهذا) ضد قول من زعم أن أصحاب الحديث.. يروون ما لا يعقلون ويحتجون بما لا يدرون"[٢]، وقال البيهقي: "أما الحديث.. عن أبي هريرة رضي الله عنه.. الهاء.. (لا) تصلح أن تصرف إلى الله عز وجل لقيام الدليل على أنه ليس بذي صورة سبحانه (ليس كمثله شيء) فكان مرجعها إلى آدم عليه السلام، فالمعنى أن ذرية آدم إنما خلقوا أطوارا كانوا في مبدأ الخلقة نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم صاروا صورا أجنة إلى أن تتم مدة الحمل فيولدون أطفالا وينشئون صغارا إلى أن يكبروا فتطول أجسامهم.. (و)آدم لم يكن خلقه على هذه الصفة.. وجد خلقا تاما طوله ستون ذراعا"[٣].

ولو لم يكن هذا الخبر من المتشابه ما وقع اختلاف في تناوله وتأويله وما اختار جمهور السلف قبوله بلا تأويل وهو أحوط وأسلم، قال ابن حجر: "اختلف في الضمير على من يعود.. قال القرطبي أعاد بعضهم الضمير على الله متمسكا بما ورد في بعض طرقه أن الله خلق آدم (على صورة الرحمن)، قال وكأن من رواه أورده بالمعنى.. وقد أنكر المازرى ومن تبعه صحة هذه الزيادة..، قلت: الزيادة أخرجها بن أبي عاصم في السنة والطبراني.. بإسناد رجاله ثقات، وأخرجها بن أبي عاصم أيضا.. قال: (من قاتل فليجتنب الوجه فإن صورة وجه الإنسان على صورة وجه الرحمن)، فتعين إجراء ما في ذلك على ما تقرر بين أهل السنة من إمراره كما جاء من غير اعتقاد تشبيه أو من تأويله على ما يليق بالرحمن ﷻ.. وزعم بعضهم أن الضمير يعود على آدم أي على صفته أي خلقه موصوفا بالعلم الذي فضل به عن الحيوان وهذا محتمل.. وقال حرب الكرماني.. سمعت اسحق بن راهويه يقول: صح أن الله خلق آدم على صورة الرحمن، وقال إسحاق الكوسج: سمعت أحمد يقول هو حديث صحيح"[٤]، وقال النووي: "اختلف العلماء في تأويله فقالت طائفة الضمير في (صورته).. يعود إلى آدم وفيه ضعف وقالت طائفة يعود إلى الله تعالى ويكون المراد إضافة تشريف واختصاص كقوله تعالى: (ناقة الله)، وكما يقال: في الكعبة بيت الله"[٥]، وهكذا يفسر العلماء المتشابهات وفق المبادئ العامة وهي رد المتشابه إلى المحكم والجزئيات إلى الكليات والفروع إلى الأصول، ولا سبيل إذن للمشككين في الوحي إلا بتأويل المتشابه على وجه غير مطابق أو بتتبع ظني المأثور وغرائب الأخبار ومنكر الدخيل بغرض التشنيع والطعن في الدين لا التحقيق النزيه وفق القواعد التي وضعها علماء الحديث بيانا لدرجة الثبوت وصحة الدلالة.

(٣) حملة ماكرة بعيدة الأغراض

قد دأب المتلمسون ثغرة على دفع خبر هيئة آدم فتخفوا في لباس المحققين وبلسان الناصح الأمين قالوا: لم يشهد له قرآن وتفرد به أبو هريرة ولا يستوي حديث الآحاد الذي لا يعدو المحتمل مع المتواتر المفضي لليقين خاصة في الحقائق والعقائد، ولم تثبت المتحجرات أيٍّ من الكائنات البشرية العملاقة الوسيطة بين الإنسان الأول والإنسان المعاصر كما يصرح الخبر، وليس موضوعه من فضائل الأعمال ليتساهل فيه وإنما هو أمر جلل يناقض صريح القرآن في تنزيه الذات العلية عن التحيز وهو المبدأ الذي يميز دين الإسلام عما سواه، والدليل على أنه من الإسرائيليات أنه عين ما جاء في سفر التكوين: "وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا.. فخلق الله الإنسان على صورته على صورة الله خلقه ذكرا وأنثى خلقهم" تكوين ١:٢٦و٢٧، ولكل بني آدم سُرَّة Navel وهم في الأسفار كصورته: "وعاش آدم.. وولد ولدا على شبهه كصورته" تكوين ٥:٣، ويقتضي التماثل امتلاكه سرة بالمثل مما يبطل أنه أول إنسان وأن الأطوال من بعده في تناقص وإنما نبي رأس أمة اصطفاه الله كغيره من بين أقوامهم كما صرح القرآن الكريم: "إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ" آل عمران 33، وفي الأسفار لم تخلق امرأته جنينًا مثل كل إنسان في القرآن من "نفس واحدة" غير متميزة الجنس Indifferent stage: "فأوقع الرب الإله سباتا على آدم فنام فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحما وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم" تكوين ٢١:٢و٢٢، فإذا كان الغرض إيجاد شريك يقوم بمهمة الإنجاب والإرضاع فامتلكت النساء أثداء فلم إذن للرجال أثداء ولا ينقص من أحدهم ضلع!، وطول آدم في تلك الروايات ستون ذراعا وعرضه سبعة أذرع وهذا دليل واضح على أنها مختلقة وموضوعة لأن هذه النسبة لا تتفق مع أبعاد الإنسان المعاصر حيث جعلت نسبة طول الإنسان الأول لعرضه أكبر بأكثر من مرتين، فإذا كان طوله ستون ذراعا يجب أن يكون عرضه خمسة عشر ذراعا لا سبعة أذرع لكي تتناسب أعضاؤه وإلا كان مسخًا، وأما حسب الرواية التي صرحت أن طوله "سبعون ذراعاً"[٦] يجب أن يكون عرضه سبعة عشر ذراعا ونصف لا سبعة أذرع؛ فإما أنها مقاييس مفتعلة أو أن آدم عليه السلام لم يكن سَوِي الخلقة نقيض قوله تعالى: "لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِيَ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ" التين 4، ولكن لو كان الغرض كما يدعون غربلة الحديث من الإسرائيليات والمخالفات للقرآن الكريم بإتباع قواعد التحقيق وصح أن تلك الروايات دخيلة قد تضمن متنها غرائب ومنكرات فلم إثارة الزوبعة إذن بعيدا عن العلماء إن لم يكن الغرض أبعد من التحقيق!.

وقد سبقهم الأعلام في فهم ما ظنوه إشكالات في تلك الروايات فتوقفوا وآثروا التفويض تورعًا لأنها في الصحاح وفق قول الذهبي في سير أعلام النبلاء: "قال ابن القاسم: سألت مالكا عمن حدث بالحديث الذين قالوا (إن الله خلق آدم على صورته) والحديث الذي جاء: (إن الله يكشف عن ساقه) وأنه: (يدخل يده في جهنم حتى يخرج من أراد)، فأنكر مالك ذلك إنكارا شديدا ونهى أن يحدث بها أحد، فقيل له: إن ناسا من أهل العلم يتحدثون به، فقال: من..؟ قيل: ابن عجلان..، قال: لم يكن ابن عجلان يعرف هذه الأشياء ولم يكن عالما.. قلت: أنكر الإمام ذلك.. فقولنا في ذلك.. الإقرار والإمرار وتفويض معناه"[٧]، ولكن ما أثاره المشككون من شبهات ليس في الحقيقة إلا تهربا من مواجهة المحكم القطعي إلى المتشابه، ولم يقع في إطار تحقيق بعيدا عن الأغراض وإنما إتباعا لموروث معادي للسنة أو موقف طائفي أو إلحادي معادي للإسلام بغرض إثارة الجلبة للتشويش، فلو صح عندهم أن تلك الروايات مختلقة وموضوعة لا يصلح بها احتجاج فَلِمَ اعتنوا بها إذن وأهملوا الصحيح كاشفين الغرض!.

(٤) خديعة تحقيق السنة

تقتضي اليقظة لكشف مكائد الطاعنين التنبه إلى الفارق في الغرض بين الطاعن المتلمس ثغرة والمحقق دفعًا للدخيل أو بحثًا عن تمثيل يوافق الواقع أو تأويل بقرينة، وتجنبا للاغترار بقناع التحقيق والغرض التشكيك ينبغي الالتزام بالضوابط وتفهم إمكان تفاوت أنظار العلماء في التقدير، قال الشيخ محمد الغزالي: "قد تتفاوت الأنظار في تقدير المرويات والحكم بقبولها أو رفضها ولكن وفق الضوابط بعيدا عن الطعن في الدين والتشكيك، وعندما يترك أحد أعلام الإسلام حديثًا من أحاديث الآحاد فهو لا يتهم بترك السنة وغاية ما يوصف به أنه شديد التحري"[٨]، وهو يرى أن: "اليقين الثابت بالعلم وبالوحي لا يجوز أن يتقدم عليه ظن علمي يرويه حديث آحاد.. إن حديث الآحاد يتأخر حتما أمام النص القرآني والحقيقة العلمية والواقع التاريخي"[٩]، ولكن المغرضون لا يتناولون السنة إلا في إطار منهج معادي غايته الطعن بعيدا عن منهج العلماء، قال الشيخ أبو إسحاق الحويني: "هؤلاء العلمانيون يثيرون مثل هذه الشبهات على السنة سنداً ومتناً ويتسترون بها من أجل هدم الدين، وإنما كان الهجوم على السنة لأكثر من سبب؛ (أولاً): لأن القرآن لا يستطيع أحد أن يطعن في لفظه ولا يدعي فيه نقصاناً أبداً.. (ثانياً): لأن القرآن نقل بالتواتر.. والسنة أكثر أحاديثها آحاد يرويها الواحد والاثنين والثلاثة والأربعة ممن لم يبلغوا حد التواتر، ثم وضع الكذابون من الأحاديث ما لا يعلمه إلا الله فشككوا الناس في السنة.. وأكثر الناس لا يعلمون جهود المحدثين.. فينطلي عليهم مثل هذا القول.. (ولكن) اعلم أن السنة.. هي.. البيان لكتاب الله عز وجل.. (و)العلماء هم بمثابة الجهاز المناعي لهذه الأمة"[١٠].

(٥) منهج العلماء في الصفات

مال أكثر السلف بخلاف نفر أكثرهم من الخلف أن التفويض في الصفات أحوط وأسلم، قال ابن عبد البر: "روينا.. في الأحاديث في الصفات أنهم كلهم قالوا: أمروها كما جاءت، قال أبو عمر: نحو حديث التنزل، وحديث: (إن الله عز وجل خلق آدم على صورته)، وأنه: (يدخل قدمه في جهنم)، وأنه: (يضع السموات على أصبع)، وأن: (قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء)، و(إن ربكم ليس بأعور)، وما كان مثل هذه الأحاديث"[١١]، وقال ابن بطة: "كل ما جاء من هذه الأحاديث وصحت عن رسول الله ﷺ ففرض على المسلمين قبولها والتصديق بها والتسليم لها وترك الاعتراض عليها وواجب على من قبلها.. أن لا يضرب لها المقاييس ولا يتحمل لها المعاني والتفاسير، لكن تمر على ما جاءت ولا يقال فيها: لم؟ ولا كيف؟.. بلا معارضة ولا تكذيب ولا تنقير ولا تفتيش"[١٢]، وقال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز: "الحديث ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إذا ضرب أحدكم فليتق الوجه فإن الله خلق آدم على صورته)، وفي لفظ آخر: (على صورة الرحمن)، وهذا لا يلزم منه التشبيه والتمثيل، والمعنى عند أهل العلم أن الله خلق آدم سميعا بصيرا متكلما إذا شاء وهذا هو وصف الله فإنه سميع بصير متكلم إذا شاء.. جل وعلا..، بل لله صفاته جل وعلا التي تليق بجلاله وعظمته وللعبد صفاته التي تليق به.. ولهذا قال عز وجل: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)، وقال سبحانه: (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)"[١٣].

---

[١] البخاري (ج٤ص ١٠٢)، وفتح الباري (ص١٧٥)، ومسلم شرح النووي (ج١٧ص١٧٨)، ومسند أحمد (ج١٥ص٦٢).

[٢] صحيح ابن حبان (ج٢٥ص٣٦٦).

[٣] الأسماء والصفات للبيهقي (ج٢ص١٧٩).

[٤] فتح الباري لابن حجر العسقلاني (ج٥ص١٣٣).

[٥] شرح مسلم للنووي (ج١٦ص١٦٦).

[٦] مسند الشاميين للطبراني (ج٩ص٢٨١)، وفردوس الأخبار للديلمي (ج٢ص٢٩٩، ج٥ص١٦٥).

[٧] سير أعلام النبلاء ج ٨ ص١٠٤، وأورده كذلك العقيلي في الضعفاء الكبير (ج٤ص٢٤٣).

[٨] مشكلات في طريق الحياة الإسلامية للشيخ محمد الغزالي (ص١٠٥).

[٩] السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث للشيخ محمد الغزالي.

[١٠] من محاضرات فضيلة الشيخ ابو إسحاق الحويني في شرح صحيح البخاري.

[١١] جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (ج٣ص١٧٨).

[١٢] الإبانة الكبرى لابن بطة (ج٦ص٢٠٥).

[١٣] مجموع فتاوى ومقالات سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز.